

شبهات واهية (١)

إذا قيل بأن الوحي من قبيل رؤى النائم، أو افتراءات الكاذب، أو أخيلة الشاعر، أو أقاويل المجنون.

يرد:

بأن القرآن الكريم صور حيرة هؤلاء، وتخبطهم في الضلال، بأسلوب لاذع ساخر، يردد فيها حرف الإضراب (بل) ثلاث مرات:

قال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أُنْفِثَتْ بِلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥].
 وذكر قولهم فيه أنه: ﴿مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] و﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

ورد افتراءاتهم فقال: ﴿ت وَالْقَلْبِ وَمَا يُسْطَرُونَ﴾ ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١ - ٢].

١ - أما أن الوحي من قبيل رؤى النائم، فهو مردود:

ببقظة النبي ﷺ المستديمة منذ نزول الوحي عليه.

ورواية الصحيحين - البخاري (٢) ومسلم - قاطعة في أن الوحي فاجأه وهو يقظان متأمل في الوجود وخالقه، فقال له: ﴿أَقْرَأْ﴾ وبعصره حتى يبلغ منه الجهد ثلاثاً، وبعدها يذهب إلى خديجة زوجته مرتعباً، يرجف فؤاده، يقول: «زملوني زملوني» فأخبرها بالخبر...

وهذا يدل على أن الوحي لو كان مناماً لزال خوفه ورعبه في اليقظة.

ويرد على هذا الزعم أيضاً ما تقدم آنفاً من الظواهر التي تبدو على الرسول ﷺ عند الوحي، والعتاب والتهديد وغيرها التي تقطع بأن الوحي لم يكن مناماً، بل هو حقيقة لا يمكن تجاهلها.

٢ - أما كون الوحي من افتراءات الكاذب فهو مردود:

(١) انظر: الوحي المحمدي ص ٩٠ وما بعدها، ومناهل العرفان ج ٢ ص ٣١٧ وما بعدها. والظاهرة القرآنية ص ١٨٢، ومباحث في علوم القرآن ص ٣٨ وما بعدها. والرسول/ سعيد حوى ج ٢ ص ١٤.

(٢) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي. وصحيح مسلم - كتاب الإيمان.

بشهادة العرب قبل النبوة حتى سمّوه بالصادق الأمين، وكانوا يأتّمونهم على أموالهم الغالية.

وكذلك بعد النبوة بشهادة العرب جميعاً من أعدائه وأنصاره.

يدلنا على هذا سؤال هِرَقْل ملك الروم لأبي سُفْيَان، عن النبي ﷺ كما ورد ذلك في صحيح البخاري:

(قال - أي هِرَقْل -: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت - أي أبو سُفْيَان -: لا...).

وحين أتّم هِرَقْل أسئلته لأبي سُفْيَان، قال مجيباً عن كل سؤال وجهه إليه:

(وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن يُنذِر الكذب على الناس ويكذب على الله).

وما جاء به القرآن من أخبار ماضية ومستقبلية وتشريعات نيرة صالحة لكل زمان ومكان بشهادة كل ذي لب.

كل ذلك يدل على أن ذلك لا يصدر من كاذب.

وقد تقرر ذلك عند الكلام عن عصمة الأنبياء وعن إعجاز القرآن في هذا الكتاب فراجع.

٣ - أما كونه من أخيلة الشعراء فهو مردود:

بما يظهر من احتقان ورعب عند الوحي، وهذا لا يظهر على الشاعر إن أراد نظم شعره، ولأن المعجزة الكبرى التي جاء بها رسول الله ﷺ هي القرآن الكريم في أسلوبه وتشريعاته وأخباره... والعرب في وقتهم أرباب الفصاحة والبلاغة بهروا وتحيروا فيه، حين سمعوا آياته تتلى، كما أن القرآن تحداهم بأن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك كما سيأتي في إعجاز القرآن.

٤ - أما أن الوحي قد صدر من مجنون:

فترده حالة النبي ﷺ عند تلقي الوحي كل مرة، كمال الوعي، ووفرة النشاط، وقوة الأعصاب. وقوله ﷺ لخديجة: «رَمَلُونِي» لا يفيد أكثر من لجوئه إلى الفراش، ليستريح بعد المنظر الرهيب الذي رآه.

ولذلك يأمره بالقيام بإنذار الناس ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَرُ﴾ ﴿فَرَقَانِدَرُ﴾...

كما أن المجنون لا يمكنه أن يأتي بهذه الشريعة المتكاملة لجميع جوانب الحياة، التي لا يكون مصدرها إلا العقل الكامل النير المبين.

٥ - وإذا قيل :

إن احتقان الوجه والشحوب يمكن أن يفسّر بأنه من أعراض التشنج .

يرد :

فإن التشنج يحدث شللاً ارتعاشياً عند الفرد المحروم مؤقتاً من قواه العقلية والجسمية، ولكن أحوال النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي - كما مر وصفها - تشهد : أن الوجه هو وحده الذي يتغير، بينما يتمتع هو بحالة عادية وحرية عقلية، بحيث يستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الوحي، في حين يمحي وعي المتشنج وذاكرته خلال تشنجه .

ثم إن تلك الأعراض الجسمية التي تظهر على النبي ﷺ حين نزول الوحي، لا تظهر عليه إلا في تلك اللحظة الخاطفة للوحي .

والحالة المرصية لا يرافقها تصبّب عرق، ولا يرافقها ظهور نص قرآني مُعجز في حد ذاته . وقد يكون سورة طويلة كسورة الأنعام، أو يكون نصاً فيه تشريع دقيق كنص المواريث، الذي يعتبر من أدق النصوص التشريعية في العالم .

٦ - ورأى بعضهم :

أن الراهب بحيرا - وهو من أتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث - علم النبي ذلك، حين التقى به في بُضْرَى بالشام .

ورأى بعضهم : أن وَرَقَةَ بن تُوَفَل هو الذي علم النبي ﷺ .

ويرد عليه بما يأتي :

أ - أن الراهب بحيرا لقي النبي ﷺ مع عمه أبي طالب ومعشر من قريش في رحلتها إلى الشام مرة واحدة فقط، وكان عمر النبي ﷺ تسع سنين، وقيل اثنتي عشرة سنة . وكان الراهب بحيرا قد رأى في صومعته في رؤياه أن رسول الله ﷺ قد جاء في ركب، وقد أظلمت عمامته، وصنع طعاماً لمعشر قريش، وكان سابقاً لا يلتفت إليهم، وهم يمرون به، ودعاهم إليه، فتخلف رسول الله ﷺ لحداثة سنّه، فقال الراهب : لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، فأخبروه بتخلف الغلام، أي النبي ﷺ، فأتوا به، وكان يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده، وبعد فراغهم من الطعام دعا به، واستحلفه بالللات والعزى، لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فقال له : «لا تسألني بالللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما» فقال له بحيرا : فيالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له : «سلني ما بدا لك» وأخذ يسأله عن حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من

صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه. فسأل عمه عن أبيه، فقال له: هو ابني، فقال له: ما ينبغي أن يكون أبوه حياً. فأجابه: إنه ابن أخي. فقال له أخيراً: ارجع به إلى بلده، واحذر عليه يهود، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به إلى بلاده^(١).

وللقصة غير تلك الرواية^(٢)، وليس في جميع الروايات ما يفيد أنه ﷺ سمع شيئاً من بحيرا عن عقيدته ودينه.

كما أن هذه الرحلة القصيرة - وهو صغير، ووجود عمه معه، حين التقى ببحيرا - كل ذلك لا يعلم النبي التشريع، ولا يعطيه مفاتيح الغيب، لكن قول بحيرا يؤكد نبوة محمد ﷺ حين سأله عن أحواله المختلفة، فيوافق ما عند بحيرا، من هيئات النبي الذي بشر به عيسى وموسى، فتنبأ أن يكون له شأن عظيم.

ب - أما شأن ورقة بن نوفل:

فإن الثابت في الصحيح: أن خديجة ﷺ انطلقت بالنبي عليه الصلاة والسلام - وذلك بعد أن جاءه جبريل ﷺ في حراء - إلى ورقة بن نوفل بن أسد ابن عمها، وكان امراً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس - أي أمين الوحي جبريل - الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً (أي شاباً)، ليتني أكون حياً، إذ يُخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ مُخْرَجِيْ هُمْ؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت

(١) سيرة ابن هشام - قصة بحيرا الراهب.

(٢) وممن رواها الحاكم في مستدركه ج ٢ ص ٦١٥ - ٦١٦ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، لكن علق الذهبي عليه بقوله: قلت: أظنه موضوعاً لبعضه باطل/ انظر هامش المستدرک.

ورواها الترمذي في صحيحه/ انظره بشرح عارضة الأhoodي ج ١٣ ص ١٠٦ وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

واستقصى طرق وروايات هذه القصة الحافظ ابن كثير في السيرة النبوية ج ١ ص ٢٤٣ وما بعدها، وقال بعد ذلك: وعلى كل تقدير فهو مرسل، فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ فيما ذكره بعضهم إثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ، فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة.

به إلا عُودي، وإن يُدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ، ثم لم ينشب (أي: لم يلبث) ورقة أن توفي^(١).

فورقة لم يلتق بالنبي وحده - كما ورد في الصحيح - بل كانت معه خديجة، ثم إن ورقة علم بمقارنته ما جرى للنبي ﷺ بما وقع لموسى وعيسى، فقال له: هذا الناموس، أي: أمين الوحي جبريل، لأن الوحي واحد لكل الأنبياء، وتوقع إخراجه حين يدعوه، وتمنى نصره آنثذ.

كل هذا يدل على أن الوحي الذي نزل عليه وعلى الأنبياء قبله هو من عند الله تعالى، الذي علمه وألهمه وهده، فليس لورقة من ذلك شيء سوى التصديق بأنه سيكون رسول الناس، فكيف يكون مصدر علم النبي ﷺ؟

ج - ثم إن الثابت هو أنه حين التقى ببحيرا، كان معه عمه أبو طالب، وحين التقى بورقة كانت معه خديجة، ولم يكن ذلك سرا مصونا، فلم لم يذكر المؤرخون ما سمعه هذان الرفيقان من علوم الأستاذين؟ ولم لم يستفد هذان الرفيقان مما استفاده محمد من هذين الأستاذين؟ إن سكوت التاريخ عن هذا الأمر حجة كافية على أن هذه الدعوى كلام فارغ لا معنى له.

د - ثم إذا كان بحيرا وورقة بهذه الدرجة من العلم، فلماذا لم يأتوا بما أتى به النبي ﷺ كالقرآن الكريم، ولماذا لم يدعوا النبوة، وإنما بشروا بنبو محمد ﷺ؟

هـ - ولو كان تلقيه على بحيرا وورقة حقاً، لاتهمته قريش بذلك، حين كانت تلتق التهم عليه تلتيقاً. فإنهم اتهموه بأنه كان يتعلم من حداد نصراني رومي في مكة يصنع السيوف، وكان النبي يقف عنده أحياناً، ليشهد صنعته، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ تَعَلَّمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْنِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبٌ مُّبِينٌ ﴿١٣٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

و - طبيعة النصرانية، وهي دين بحيرا وورقة والقين الرومي، لا تتفق مع ما جاء به محمد ﷺ فكيف تكون مصدراً لديانته وقرآنه؟

ز - في القرآن الكريم أنباء المغيبات حدثت بعد موت بحيرا وورقة، فكيف يتصور أن القرآن من تعليمهما؟

كما أن المعروف أن آيات القرآن كانت تنزل وفق الحوادث والوقائع الطارئة.

(١) الحديث متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، ومسلم في كتاب الإيمان. انظر:

المؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٣٢.

ح - لو تلقى النبي ﷺ عن بحيرا أو غيره، لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً صغيراً أو كبيراً إلا ودونوه، ولو لم يثبت عندهم، لأنهم يتركون أمره إلى رواة الخبر وإسناده.

ط - لم يثبت في الأحاديث الصحيحة أن محمداً ﷺ كان ينتظر الوحي عليه، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونوه.

ي - كما أن الرسول ﷺ لم يلقَ أخبار اليهود ولا رُهبان النصارى، ولم يثبت اتصاله بهم، وهذا ما أكده الباحثون.

ك - والقرآن الكريم بأحكامه القاطعة بالصحة المتتابعة، النازلة في مدة عشرين سنة، المتشعبة الكثيرة، في العقائد والمعاملات والحكم والأخبار الغيبية وغيرها مما يعالج جوانب الحياة المختلفة، يحكم العقل بالبداهة أنها ليست مأخوذة عن جلسة سريعة، والتقاء بسيط مع راهب أو غيره، إذ كيف يقطع بصحة تلك الأحكام على كثرتها والأخبار الغيبية من وراء تلك الجلسة؟ كل ذلك يدل على أن ما جاء به كان تلقياً من الله تعالى.

قال ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

٧ - وإذا قيل بأن سولون فيلسوف اليونان قد جاء بشرع منه، فليس بعجيب أن يأتي الرسول بشريعته من فكره وعبقريته.

فالرد عليه هو:

إن سولون أحد فلاسفة اليونان في القرن السابع قبل الميلاد، ووالدته من أنساب بستراتوس آخر ملوك أثينا.

وكان من رجال المال والحرب، وقد تولى في بلاده بعض الإدارات وقيادة الجيوش، وانتخب سنة ٥٩٤ قبل الميلاد (أرجونا) أي رئيساً للأمم، بإجماع أحزابها كلهم، وأعطوه سلطة مطلقة في نظم البلاد وقانونها، الذي وضعه (زراكوت) من قبله، فوضع سولون نظاماً جديداً اتبعته الحكومة. لكن هذا النظام الجديد كان عبارة عن تنقيح القوانين السابقة التي صنعتها أعظم الأمم فلسفة وحضارة وتقدماً آنذ، وكان سولون متعلماً فيلسوفاً وقائداً لأعظم الجيوش المنظمة لأكبر دولة في العالم.

فأين هذا من محمد ﷺ، الأُمِّي الذي لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يعرف السياسة أو قيادة الجيوش . وما جاء به من تشريعات لم يكن مسبوقاً بقوانين تحكم جزيرة العرب كقوانين اليونان والرومان، لأن في الجزيرة قبائل متفرقة لا يجمع شملها نظام، ولا يحكمها قانون .

إذن ما جاء به لم يكن إلا وحيّاً من الله تعالى، فيه العقائد والآداب والأحكام وكل ما يحتاج إليه الناس، فكان صالحاً لكل زمان ومكان .

